

الاقتصاد النوميدي رؤية تاريخية

The Numidian- economy is a historical vision*

د. مهني مجيد

جامعة الشهيد الشيخ العربي التبسي تبسة. Madjid.mehani@univ-tebessa.dz

تاريخ النشر: 2024/10/12

تاريخ القبول: 2024/10/03

تاريخ الاستلام: 2024/01/09

ملخص: يعالج موضوع مقالنا هذا، الاقتصاد النوميدي الذي يعد أهم وأبرز المظاهر الحضارية التي ميزت المملكة النوميديّة، قبل وبعد الوجود الروماني في بلاد المغرب القديم، ولعل ثراء وتنوع مصادر الثروة النوميديّة جعلها محط أطماع وتكالب القوى الخارجية، على مر الأزمنة والعصور، وقد تجلّى ذلك بصورة أكثر وضوح، بسقوط قرطاجة عام 146 ق.م تحت نير الاحتلال الروماني. وبظهور شخصية الملك ماسينيسا، الذي استطاع أن يعيد الوحدة السياسية لنوميديا، التي امتدت حدودها إذ ذاك، من وادي ملوية غربا، إلى السرت الكبير شرقا، حيث حكمها هو وخلفاؤه من بعده زهاء القرن ونصف القرن، شهدت فيه نوميديا تحول اقتصادي جذري. ومن خلال هذا الموضوع يمكن أن نتتبع من خلاله ونتلمس، مظاهر هذا التحول الاقتصادي الذي وصلت إليه نوميديا، منذ ظهورها على مسرح الأحداث حتى سقوطها على يد الاستعمار الروماني.

الكلمات المفتاحية: الرومان؛ المغرب؛ قرطاجة؛ ماسينيسا؛ ملوية؛ نوميديا؛

Abstract: This research paper deals with the Numidian economy, which is considered the most important and prominent cultural manifestation that distinguished the Numidian Kingdom, before and after the Roman presence in the ancient Maghreb. Perhaps the richness and diversity of the sources of Numidian wealth made it the focus of the ambitions and demands of external powers over the ages and ages. This was demonstrated more clearly by the fall of Carthage in 146 BC under the yoke of Roman occupation, and with the emergence of the figure of King Masinissa, who was able to restore the political unity of Numidia, whose borders at that time extended from the Moulouya Valley in the west to Sirte el-Kebir in the east, and for him and his successors after him to rule it for about a century and a half, during which Numidia witnessed a transformation. Radical economic.

Keywords: Carthage ; Romans ; Maghreb; Masinissa ; Moulawya ; Numidia;

I مقدمة :

لم تنل الممالك النوميديّة الدراسة الوافية والشفافية في المصادر الكلاسيكية، خاصة ما تعلق منها بالجوانب الحضارية في شقها الاقتصادي، مقارنة بالدراسات السياسية والعسكرية التي شهدت ثراء بحثي لا نظير له، خاصة الفترة التي أعقبت احتلال المنطقة واخضاعها للهيمنة الرومانية.

ليس من السهل دراسة الجانب الحضاري المادي لتاريخ مملكة نوميديا، خاصة ما تعلق منه بالنشاط الاقتصادي، في ظل شح المصادر الأثرية المادية العائدة لهذه الفترة، وحتى وإن وجدت فهي عبارة عن بقايا أثرية مادية، يصعب على الباحث استنتاجها، وتفسيرها بشكل، واضح وصريح.

لذا جاء موضوع مقالنا هذا إضافة جادة في حقل البحث عن التاريخ الاقتصادي لنوميديا، قبل وبعد الاحتلال الروماني لمنطقة بلاد المغرب القديم. وقد عالجت هذا الموضوع انطلاقاً من الإشكالية البحثية التالية: فيما تمثلت مقومات الاقتصاد النوميدي؟ وماهي أهم مظاهره؟ وكيف ساهم الإقتصاد في نوميديا في إيجاد تواصل حضاري مع غيرها من شعوب البحر الأبيض المتوسط؟ وللإجابة عن هذه الأسئلة، اعتمدت على المنهج التاريخي، من خلال جمع المعلومات وترتيبها وتبويبها، وعلى المنهج التحليلي، من خلال تحليل المعطيات التاريخية حول موضوع البحث.

أولاً: الزراعة والثروة الحيوانية : مما لا شك فيه أن أغلب المصادر الكلاسيكية عند الحديث عن النشاط الزراعي في بلاد المغرب القديم، وبالأخص في نوميديا، تكاد تتوافق الأراء حولها، على الدور الذي لعبه الملك "ماسينيسا" في إحداث نقلة نوعية في تطوير الزراعة، واثمين دورها في النشاط الاقتصادي في المنطقة، وهذا ما ذهب إليه الجغرافي سترابون عندما قال بأن ماسينيسا، قد استطاع تحويل نمط حياة النوميديين من رعاة متنقلين، إلى زراع مستقرين (Strabon, 1857, pp. XVIII,15).

هذا لا يعني أن المنطقة لم تشهد نشاطاً زراعياً قبل مجيء ماسينيسا، ولا يوجد اعتقاد أن الزراعة في بلاد المغرب القديم تأخر ظهورها إلى عهد ماسينيسا، بل إن ما فعله هذا الملك ما هو إلا عملية توسيع للنشاط الزراعي المتزامن مع عملية الاستقرار التي رافقت حركة التعمير البشري (العربي، 2008، صفحة 29).

حيث استعاد ماسينيسا أراضي كانت قد ضمتها قرطاجة سابقاً (إقليم مدن الامبوريا) والتي كانت تتميز بخصوبة تربتها من جهة ومن جهة أخرى طبيعة اليد العاملة فيها والتي خبرت فنون الزراعة منذ القديم والتي ورثتها عن القرطاجين، وقد ترافق مع توسيع الأراضي الزراعية زيادة الإنتاج الزراعي، وخاصة زراعة الحبوب خاصة إنتاج القمح والشعير، وربما نلمس أهمية إنتاج القمح من خلال نقش لسنا بل القمح على عملات بعض الملوك في كل من نوميديا وموريطانيا (بوخوس الصغير)، (ويوبا الثاني) وعلى عملة مدينة كيرتا (الحبيب، 2007، صفحة 55)، كما عمل ماسينيسا على تركيز السلطة بيده مما ساهم في استتباب الأمن والاستقرار الذي ترافق مع الحد من حركة البدو الرحل الذين كانوا يغفرون على الأراضي الزراعية، مما نجم عنه بداية توجه الأهالي إلى العناية بالأرض وزراعتها.

سبق أن أطلق هيرودوت لقب " الليبيون المزارعون" على "المكسي" (Maxyes) الذين يسكنون وراء بحيرة التريتون، ويذهب إلى الاعتقاد على انتشار زراعة الكروم والزيتون في منطقة "قرقنة" (Gsell(S, 1915, (Cyraunis) pp. LIV, CXCL-CXCV) كان بشكل وفير. فالأدلة الأثرية تشير أن الإنسان المغاربي القديم عرف الزراعة ومارسها بمهارة، من خلال أدوات الحرث وطرق الري التي مازالت شواهدا إلى اليوم، مثل مشهد حرث في كهف الأروية بالشافية (القالة) ومشهد حرث في الأطلس الأعلى (الفتاح، 2012، صفحة 17). ولعل المعطيات الأثرية قد أكدت بما لا يدع للشك من خلال اللقى الأثرية التي عثر عليها علماء الآثار، من خلال وجود بعض الآثار الدالة على ممارسة الإنسان المغاربي القديم للزراعة، والمتثلة أساسا في النصال مضروبة الظهر وغير المضروبة، مقابض مشدبة بطريقة قد تستخدم للقطع، مجموعة من الحجارة المثقوبة التي تعتبر بمثابة عصي الحفر، أدوات الطحن ومنها الرحي، كل هذه الأدوات قد تفسر على أنها استخدمت من أجل ممارسة النشاط الزراعي (الجودي، 2014، صفحة 08).

وفيما يخص نظام استغلال الأرض، فإن المعلومات حولها تكاد تكون شحيحة، نظرا لغياب المعطيات التاريخية والأثرية، وكل ما قيل حول هذا الموضوع، لم يتعد مجال الافتراضات (الفتاح، 2012، صفحة 50). غير أننا يمكن أن نستخلص من المصادر وجود ملكية زراعية خاصة منذ الملوك النوميد الأوائل، فقد ذكر ديودور الصقلي أن ماسينييس ترك لكل واحد من أبنائه (10000 بلاتر) أي ما يعادل 874 هكتار (sicile, 1834, pp. XXXII, 17)، إلى جانب أراضي رعوية مشتركة وهي ما تسمى بأراضي الأعراس في يومنا هذا. ففي المناطق ذات التجمعات السكانية حيث يشكل الافراد تجمعات في شكل قرى، يبرز أكثر نمط الملكية الجماعية للأرض، والاستغلال المشترك، حيث يقسم الجميع عائدات الأرض من محاصيلها وثمارها.

كما يوجد نمط آخر لاستغلال الأرض يتمثل في الاشتراك في ملكية الأرض بين أفراد القبيلة لكن الأرض توزع بين العائلات لاستغلالها بصفة مؤقتة ولمدة زمنية محددة، أما الافتراض الأخير فهو ملكية الأفراد أو العائلات لقطع أرضية ملكية خاصة بعد أن يقوموا باستصلاحها ولهم الحق في توريثها للخلفاء.

1.1 الإنتاج الزراعي : من خلال ما ورد في النصوص الكلاسيكية، يبدو أن إنتاج الحبوب وفي مقدمتها الشعير والقمح، كانت بشكل وفير، وذلك نظرا لخصوبة التربة، وتوفر الشروط المناخية الملائمة كما يقره "بوليب" عندما يصف أرض نوميديا وخصوبتها بالمدهشة (Polybe, Histoire général, 1874, pp. L.XII, III). أما الجغرافي "سترابون" فقد أشار أن علو سنابل القمح، كانت تصل إلى خمسة أذرع، وأن حجم حبة القمح يماثل تقريبا حجم الخنصر (Strabon, The Géography, 1857, pp. LXVI, III, II) وإن كان هذا الوصف والتمثيل مبالغ فيه في اعتقادنا، كونه يعبر عن الوفرة في الإنتاج. ولا أدل على ذلك أن ماسينييس كان يمون جيش روما، فيما بين (200 ق.م - 170 ق.م) بكميات كبيرة من القمح، وهي موثقة في المصادر القديمة، وهي نسبة ضئيلة إذا ما قورنت بإنتاج مملكة نوميديا.

أما يوليوس قيصر فقد أفصح على نوايا روما باحتلالها نوميديا عام 46 ق.م عندما صرح قائلا: "أتيت لروما ببلد يستطيع أن يزودها بمقدار 840.000 قنطار من القمح" (شنيقي، 1984، صفحة 84). وفي عهد الامبراطور "نيرون" (Néron) 54 ق.م/ 68 ق.م زادت حاجة روما للقمح الإفريقي التي بلغت 3/2 (شنيقي، 1984، صفحة 86). من حاجة الدولة، كما قام بإعفاء سفن شحن القمح القادمة إلى روما من أعباء الضرائب وذلك قصد زيادة تدفق ما تحتاج إليه روما من الغذاء الذي كان يمنح مجانا للشعب الروماني نتيجة تراجع الإنتاج المحلي من جهة وتشجيع انتاج وتسويق الزيت والنبيد الذي عرف احتكارا من قبل السلطات الرومانية في روما.

ولمواجهة المجاعات التي شهدتها روما في نهاية القرن 2 ق.م، أرسل الامبراطور كومودوس (Commodus) (180/192 ق.م) مندوبين ووكلاء، منح لهم حق الإقامة في إفريقيا من أجل الإشراف على مراقبة شحن السفن المحملة بالقمح والمتوجهة نحو أسواق روما. هذا وقد اتجهت السياسة الرومانية الجبائية إلى تشجيع الجبابة العينية، خاصة في مادتي القمح وزيت الزيتون، وذلك قصد اشباع الحاجيات الأساسية للمواطن الروماني بالدرجة الأساس وتصدير الفائض منه نحو الأسواق الخارجية.

لذا عملت روما منذ أن وطئت أرض نوميديا، إلى انتهاج سياسة زراعية، قائمة على توسيع وتوجيه الإنتاج الزراعي، خاصة ما تعلق منها من مادتي القمح وزيت الزيتون، من خلال سن قوانين وتشريعات تنظم طرق ملكية الأراضي وحيازتها واستغلالها والانتفاع بها، ولعل أبرزها قانون "مانكيانا" (Lex Manciana) وقانون "هريانا" (Lex Hadriana) إذ ينص القانون الأول على حصر الاستفادة من الأراضي البور والمهملة وزراعتها كروما وزيتونا، بينما يذهب القانون الثاني إلى توسيع عملية الاستصلاح والاستفادة من الأراضي القاحلة البور التابعة للمستثمرات الإمبراطورية بإفريقيا، وقد سمح هذا القانون للمقيمين على هذه الأراضي، من حق وضع اليد على هذه الأراضي، وحق الانتفاع الشخصي، بالإضافة إلى حق توريثها لفروعهم، شرط أن يستمروا في استغلالها. (روستوفتروف، م، 1957، صفحة 434).

هذا وقد ساهمت هذه القوانين والتشريعات الرومانية في احداث نمط قانوني جديد للأرض، ففي الظاهر جاءت من أجل تنظيم استغلال الأرض الفلاحية، من خلال تحديد حقوق وواجبات المزارعين والملوك، وتوسيع الأراضي الزراعية واستصلاحها بما يضمن زيادة الإنتاج الفلاحي، وتغطيته لحاجات روما الأساسية، بما تحتاج إليه من الغذاء، أما باطنها فقد حملت في ثناياها آثارا انعكست سلبا على الأهالي أصحاب الأرض، ويمكن إبراز أهم الانعكاسات السلبية لهذه القوانين في الآتي:

- أصبحت أراضي البلاد المستعمرة ملكية عمومية للشعب الروماني يحق التصرف فيها بما يضمن استمرار مصالح روما.
- تغير الوضعية القانونية للأرض بحيث أستبعد منها أصحاب الأرض وحل محلهم عنصر أجنبي الذي أصبح المالك الفعلي للأرض وذلك من خلال تمليك الوافدين من المعمرين والمسرحين من الجيش للأرض قصد استغلالها.
- توسع المزارع الكبرى وتزايد عددها في نوميديا وانتقال ملكيتها إلى كبار ملاك الأراضي وحتى للأباطرة أنفسهم.
- ممارسة الضغط على الأهالي من خلال الاستلاء على أراضيهم واجبارهم على الهجرة إلى الأراضي الأقل خصوبة نحو أطراف الصحراء والجبال (العربي، 2008، صفحة 79).
- تحول أصحاب الأرض من الأهالي إلى أجراء لدى الملاك الجدد تمارس عليهم أبشع أنواع الاستعباد والاستغلال.
- زيادة أعمال السخرة التي فرضت على الأهالي من الفلاحين والمزارعين والعمال، وذلك من خلال القيام بأعمال مجانية لصالح الملاك أو وكلائهم.
- تحول الأهالي إلى وعاء ضريبي من خلال الإتاوات العينية التي كانت تفرضها روما.
- تزايد أعباء الديون على صغار الفلاحين والمستأجرين للأراضي من الأهالي الذين أرغموا في النهاية على العزوف عن العمل الفلاحي (صفية، 2014، صفحة 117).
- استنزاف خيرات الأهالي الفلاحية وإحاقها بالاقتصاد الروماني.

- تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للأهالي أصحاب الأرض.

- توسيع استصلاح الأراضي المهمشة والبور وأراضي الرعي والحد من حركة تنقل الأهالي قصد معرفة تحركاتهم ومراقبتهم وإرغامهم على قبول الإدماج في إطار سياسة الرومنة.

2.1 الزيتون: تباينت آراء الكتابات الكلاسيكية حول موطن بعض الزراعات الشجرية بين الأصل المحلي والاجنبي ولعل في مقدمة هذه الزراعات تطرح زراعة الزيتون إشكالية بحثية، نظرا لتضارب آراء المؤرخين حول هذه الزراعة بين الرأي المحلي والرأي الوافد فما جاء في المصادر الكلاسيكية الإغريقية واللاتينية وغيرها من الكتابات التاريخية المعاصرة حول أصول زراعة الزيتون على أنها استقدمت إلى بلاد المغرب من آسيا الصغرى، وأن موطنها الأصلي هو آسيا الصغرى، ثم انتقلت إلى سوريا وفلسطين في القرن الخامس عشر قبل الميلاد و إلى مصر في القرن الثالث عشر ق.م في عهد رمسيس الثاني، ويذكر أيضا أنهم نقلوها إلى إيطاليا عن طريق بلاد الإغريق (الهادي، أصول الزراعة في بلاد المغرب القديم، 2009). بينما يذهب الدكتور محمد الصغير غانم بأن أصول شجرة الزيتون ذات أصول محلية، وأن النوميديون عرفوا هذه الشجرة منذ القديم، ويضيف بان الانسان المغاربي القديم استفاد من الزيتون البري (شجرة الزبوج) الذي كان منتشرًا حيث بدءوا بعمليات القطف واستخراج الزيت لاستعمالات متعددة، ولكن بعد الاتصال الفينيقي عمد هؤلاء المحليين إلى غرس وتلقيح الأشجار المتواجدة بمناطق الأراضي التابعة لسيادتهم (شيخي و أوكيل، 2022).

عرفت بلاد المغرب القديم زراعة الزيتون قبل مجيء الرومان إلى المنطقة، ومن خلال مشاهد الرسوم الصخرية في الطاسيلي، تبين مشاهد لأشخاص رؤوسهم متوجة بأغصان الزيتون (Fabrer(H), 1953, p. 11)، هذا إن دل على شيء، فإنما يدل على اهتمام الانسان المغاربي القديم بهذه الزراعة على مر التاريخ.

تعاظمت حاجة الرومان لمادة زيت الزيتون في القرن الثاني للميلاد؛ نتيجة اهمال زراعته في روما من جهة، وزيادة الطلب على زيت الزيتون من جهة ثانية، خصوصا لما كان يوزع مجانا على فقراء روما (مسعودي، 1987، صفحة 23) فزادت من عملية توسيع نشاط زراعته في نوميديا، كما منحت امتيازات خاصة للفلاحين الذين يباشرون هذه الزراعة.

لعل انتشار بقايا آثار معاصر الزيتون التي لا تكاد تخلو منطقة منها من نوميديا، لدلالة على اهتمام الرومان بهذه المادة الاستراتيجية (Fabrer(H), 1953, p. 25) التي دخلت في العديد من الاستخدامات، إذ باتت مادة أساسية كوقود للمصابيح التي كانت هي المصدر الوحيد للإضاءة، كما استخدمه الرياضيون، حيث كان المصارعون الرومان يدهنون به أجسادهم أثناء ممارستهم لبعض التمارين الرياضية، كما استخدم للدهن أجساد المستحمين لوقايتها من نزلات البرد (ربه، 2009، صفحة 439).

2الثروة الحيوانية :

1.2 الصيد: لا شك أن حرفة الصيد، ارتبطت أساسا بحاجة الانسان قديما للطعام، وهي حرفة تزامن ظهورها مع البدايات الأولى لفجر التاريخ، وقد زادت حاجة الانسان النوميدي لممارسة هذه الحرفة؛ لتوفر حيوانات برية عديدة ذكرتها المصادر القديمة كانت سائبة في البراري والمنتجعات، وهي على اختلافها كما وصفها المؤرخ اليوناني هيرودوت وهي: "الظباء، الأيائل، بقر الوحشي، الحمير، الثعالب، الكباش، الأسود، والنمور (Hérodote, 1980, p. L.IV.192). هذا وتجدر الإشارة أن كثرة هذه الحيوانات، وتنوعها راجع لطبيعة البيئة المساعدة على وفرة مثل هكذا ثروة حيوانية، وتطلعنا الرسومات الصخرية، على مشاهد للصيد باستخدام كلاب مدربة تم استئناسها، ساهمت بشكل مهم في انتشار هذه الحرفة، التي باتت توفر لممارسيها مادة أولية من جلودها التي صنعوا منها ألبسة

تستر عورتهم، كما صنعوا من ألبانها ولحومها غذاء قوى بنيانهم (الشريف، 2014، صفحة 151). وأثناء الاحتلال الروماني لبلاد المغرب القديم زاد الطلب على الحيوانات الضارية التي استخدمت في عروض المبارزة، وألعاب السرك والتي كانت بشكل وفير في نوميديا.

2.2 تدجين الحيوانات: لا شك أن تدجين الحيوانات في بلاد المغرب القديم، لا تزال غير معروفة بشكل دقيق، إذ لا تكاد تسمح المعطيات الأثرية المتوصل إليها من معرفة البدايات الأولى التي قام بها الإنسان في استئناس أنواع محددة من الحيوانات دون غيرها، إذ يرجح أن تكون عملية الاستئناس، قد ترافقت مع ممارسة الصيد والقنص لبعض الحيوانات، ثم العمل على ترويضها في خطوة لا حقة. ومع ذلك فقد أشادت الكثير من الدراسات التاريخية الكلاسيكية بالثروة الحيوانية التي كانت تزخر بها بلاد المغرب القديم؛ ونوميديا على وجه الخصوص، وهذا شيء مسلم به، نظرا لطبيعة المنطقة وبما تتميز به من إمكانات طبيعة ومناخية ساهمت وتساهم إلى يومنا هذا في ممارسة نشاط الرعي القائم على الانتجاع، والتنقل بحثا عن مناطق الرعي، وهذا ما ذهب إليه "بوليبوس" عندما أشاد بالثروة الحيوانية في بلاد المغرب القديم. "هذه المنطقة كثيرة الخيول والأبقار والأغنام، وكذلك الماعز، إلى درجة أنني لا أنصور وجود مثيلا لها في أية بقعة من الأرض..." (Polybe, 1970, pp. XII,3-4) بينما يذهب "ساليستوس" إلى الاعتراف بأن نوميديا كانت أراضيها صالحة لتربية قطعان الماشية (Sallustius, 1941, pp. XVII,5). كما أولى النوميديون عناية فائقة بتربية الخيول ذات السلالة الجيدة، وتتميز الخيول النوميديية بالسرعة والقدرة على تحمل المشاق والصبر على الجوع، والعطش والتي كانت تستخدم كوسيلة نقل هامة، تساهم في حل وترحال الإنسان النوميدي الذي كان مولعا أيضا باستخدامها في السباق وممارسة الفروسية، دلالة على بسالة وشجاعة الخيال المغاربي في القديم (S.Gesell, 1913, p. 182).

3 الصناعة : نظرا لانصراف الإنسان النوميدي وتخصصه بشكل واضح في نشاط الرعي أولا ثم بالزراعة ثانيا إلا أنه لم يهمل ممارسة بعض الصنائع والحرف التي ارتبطت بحياته اليومية ومن هذه الصناعات يمكن ابرازها في الآتي :

1.3 صناعة الفخار: تعد صناعة الفخار من أقدم الصناعات التي عرفتها نوميديا، ويمكن التمييز بين نوعين من الفخار: فخار ذو أصول فينيقية بونية كان يجلب من المدن الساحلية، وفخار نوميدي محلي. (عيساوي، 2009، صفحة 297) ويصنف الفخار النوميدي إلى فخار نذري ليس له قيمة سوى الجانب التعبدي عادة ما يوضع في القبور كهدايا جنائزية كالجفان الصغيرة، وهي أواني مسطحة جوانبها مائلة قليلا، تستعمل في الغالب لوضع العطور، ويمكن تمييز الفخار النذري التعبدي الجنائزي من خلال بساطته وخلوه من الأذرع والمقابض، وفخار عائلي متعدد الاستعمالات اليومية، منه المزخرف بأشكال هندسية في الغالب في شكل مثلثات وملونة عادة باللون الأسود والاحمر (جهيدة، 2014، صفحة 14)، وقد عثر على كميات هائلة من الفخار في العديد من المواقع الأثرية في شرق نوميديا مثل موقع قسطل بتبسة والركنية بنواحي قالمة وغيرها من مناطق نوميديا. وقد صنعت منه العديد من الاواني، كأواني للطهي، وأواني للشرب، وأواني للأكل، وأواني للتخزين. وفي فترة الاحتلال الروماني نشطت الصناعات الفخارية خاصة صناعة الجرار ذات الحجم الكبير والتي خصصت لأغراض تخزين السوائل وفي مقدمتها الزيت والخمور، والتي صُدّرت بكميات كبيرة نحو روما (الصالح، 2015، صفحة 37).

2.3 صناعة الملابس والحلي: يعد اللباس مؤشرا هاما يعبر عن حضارة وثقافة الشعوب على مر الأزمنة والعصور، ومصدر معلوماتنا حول هذا الموضوع، يتمثل أساسا في الشواهد من نصب والرسوم الصخرية، وكذا بعض البقايا المادية التي عثر عليها في المقابر، وكذا الكتابات الكلاسيكية للمؤرخين والرحالة القدماء والتي صورت لنا ألبوما عن نمط وحياة الإنسان النوميدي قديما من خلال صنعه لألبسة، ميزت حياته اليومية. استطاع الإنسان النوميدي

أن يصنع لباسه مما توفر لديه من مواد أولية، حيث حاك لباسه من أصواف الغنم وشعر الماعز، كما تفنن في تحويل جلود ما توفر لديه مما كان يستأنسه من الحيوانات أو مما كان يصطاده في صناعة النعال والاحذية.

لبس النساء النوميديات عددا من الاثواب المكونة من ثوبين أو أكثر، وهي عبارة عن فساتين طويلة واسعة تصل حتى القدمين وقد شددت في الخصر بقطعة قماش شكلت من ضفائر ملونة، وهي عادة مازالت منتشرة عند نساء البوادي إلى يومنا هذا، مما يدل على الاحتشام، وعدم الميل إلى السفور عند النساء النوميديات. هذا ويعد لباس "البرنس" أو "البرنوس" الذي كان ومازال يصنع من الصوف الأبيض، لباس مفضلا عند الرجل النوميدي، وهو في شكل معطف مفتوحا من الأمام بأطراف عريضة (الهادي، 1992، صفحة 125).

أما صناعة الحلي في نوميديا فبالرغم أنها من الحاجات الكمالية إلا أن الانسان النوميدي لم يستغن عنها، فالحلي تعبر بصدق عن المستوى المعيشي والاجتماعي والثقافي الذي وصل إليه الإنسان عبر مختلف الأزمنة، منها ما استعمل لأغراض طقسية دينية، كالتمايم وغيرها، ومنها ما استعمل لإبراز الزينة والجمال خصوصا عند النساء.

أما من حيث المواد التي صنعت منها الحلي، فهي تختلف باختلاف الأزمنة والعصور التي شهدتها منطقة بلاد المغرب القديم ونوميديا تحديدا موضوع دراستنا، وكذا باختلاف البيئة التي تمدنا بالمادة الأولية لصناعتها. لذا نجد أن الحلي المصنوعة من الحجارة أكثر انتشارا، حيث تم العثور في الرماديات على قلائد صنعت من حجر الصوان (نسيم، 2009، صفحة 43).

لم تتوقف صناعة الحلي على مادة الحجارة فقط، بل شهدت أيضا تفنن الانسان المغربي في صناعة الأسوار والقلائد من بقايا عظام وأصداف بعض الحيوانات التي كان يصطادها (S.Gesell، 1913، صفحة T6.p3). كما عرف صناعة الحلي من خلال تحويل الزجاج، إلى مواد ذات قيمة جمالية، حيث تم العثور العديد من حلقات الاذن والخواتم في الرماديات وفي القبور الموهلة في الزمن القديم لوجود الانسان، ذات الألوان المختلفة والتي تدل على مهارة وتفنن الصانع في ابرازها.

ومنذ القرن 3 ق.م بالتقريب، دخل المعدن خاصة النحاس والبرونز في صناعة الحلي في بلاد المغرب القديم، نظرا لتوفر هذه المادة بكميات هائلة في المنطقة. أما الحلي من المعادن النفيسة، كالذهب والفضة فإن وجودها كان بالقدير القليل، مقارنة بالحلي من المواد الأخرى، ربما مرد ذلك إلى العوامل الاقتصادية، كون أن هذه المواد عادة ما استعملت في المبادلات التجارية، أو ربما حتى لأسباب ذات طابع ديني.

3.3 صناعة النقود: سك النقود صناعة عرفها العالم القديم، وتعد "ليديا" (Lydia) في آسيا الصغرى من بين أولى الشعوب التي عرفت سك العملة في التاريخ القديم وقد تزامن بالتقريب مع مطلع القرن 8 ق.م ثم شاع انتشارها بعد ذلك في العالم القديم، أما في نوميديا فقد عرفت سك النقود ابتداء من القرن الثالث ق.م متأثرين بذلك بالنمط الإغريقي، وقد استخدم فيها النحاس والرصاص كمادة أولية في صناعتها، و يعد سيفاكس أول من سك العملة في مازيسيليا منذ أواخر 3 ق.م. أما من حيث نوعية المادة التي سك بها العملة النوميديية فيبدو أنها كانت في الغالب من معادن أقل تكلفة تتمثل أساسا في الرصاص والنحاس، بينما أحتفظ بالمعادن النفيسة من الفضة والذهب كسبائك مكنوزة، بدل من تذويعها، ويرجع استعمال مادة الرصاص في سك العملة النوميديية، نظرا لتوفره بكميات كبيرة وسهولة استخراجة وصهره، كما كان يمزج مع النحاس ليزداد صلابة، وفي الغالب اقتصر استعمال هذه العملات في التداول المحلي، بينما استخدمت للتجارة الخارجية عملات فضية أجنبية، منها ما هو قرطاجي وروماني وإغريقي (فتيحة، 2007، صفحة 278). ويمكن أن نميز بين نوعين من العملات النوميديية:

عملة الملوك: وهي في الغالب عملات سكت بأسماء الملوك التي ضربت باسمهم، وتحمل صورهم وأسماءهم، ولا أدل على ذلك مثل عملة الملك سفاكس، التي نقش على وجهها صورته واسمه باللغة البونية الحديثة، وعلى ظهرها صورة فارس على صهوة فرسه (خالدية، 2022، صفحة 462). وابتداء من عهد الملك يوبا الأول، بدأت تظهر صور لمنشآت عمرانية، تعكس الرقي والتقدم الحضاري والعمراني الذي وصلت إليه إنجازات هؤلاء الملوك.

عملة المدن: لم يتوقف ضرب العملة باسم الملوك، بل أصبح سك العملة يشمل بعض من المدن النوميديّة المحاذية لساحل البحر الأبيض المتوسط (روسيكادا، هيبون، صلداي) وغيرها من المدن الساحلية حملت أسماء تلك المدن أو أسماء معبودات مع كتابات بونية، ربما يشير هذا التوجه نحو نوع من الاستقلال الذاتي لهذه المدن في إدارة شؤونها الداخلية.

4.3 الحدادة: عرف الانسان النوميدي صهر الحديد وتطويره في العديد من الأدوات الصناعية فقد أخرجتنا المصادر الأثرية والنصب الجنائزية وشواهد القبور والرسومات الصخرية على بعض المشاهد والصور التي تبرز اهتمام الصانع النوميدي وتفننه في صناعة بعض الصناعات ذات الطابع الحربي الدفاعي أو الهجومي كالرمح الذي كان السلاح الرئيسي للجنود النوميديين، والسيف والخنجر والخوذة والدرع، كما صنع أدوات الزراعة التي كانت وسيلة للتعامل مع النشاط الزراعي وقت الحرث والحصاد، كصناعة المحاريث والمناجل، وغيرها من الأدوات الزراعية (عيساوي، 2009، صفحة 299).

4 التجارة: بني الاقتصاد النوميدي على نشاط الرعي بالدرجة الأساس وعلى نشاط الزراعة في الدرجة الثانية، بينما كان النشاط الصناعي جد محدود في بعض الأنشطة الصناعية الحرفية ذات الاتصال المباشر بحياة الناس اليومية، الوضع الذي هياً لقرطاجة بأن تتبوأ مكانة أساسية كقوة إقليمية في المنطقة، وبأن تفرض وجودها وهيمنتها على النشاط التجاري، خاصة التجارة الخارجية وقد استمر لها الحال حتى عقب انهزامها في الحرب البونيقية الأولى والثانية، أين بدأت مكانتها التجارية في الأفول مع بروز شخصية ماسينيسا، حيث استطاع هذا الأخير اتباع سياسة مرنة في التعامل مع القوى الخارجية خاصة روما، وفي توطيد علاقات تجارية مع شعوب البحر الأبيض المتوسط بما تمتلكه من مقومات اقتصادية من خلال وفرة الإنتاج الزراعي وفي مقدمتها الحبوب (القمح) الذي تربع على طبيعة المبادلات التجارية النوميديّة، والذي عد من أهم السلع المتداولة في أسواق البحر الأبيض المتوسط، فروما وحدها كانت تتزود به أزيد من ستة أشهر في السنة، مما حدا بها إلى تخصيص أسطول بحري لنقله إلى أسواقها. (فاضل، 2014)

هذا ناهيك عن الكميات التي كان يقدمها ماسينيسا من حين إلى آخر، كهبات لروما خصوصا أيام حروبها مع القوى المناوئة لها، ولم يقتصر تصدير القمح النوميدي في عهد ماسينيسا على روما فقط، بل تم تصدير كميات هائلة منه نحو بلاد الإغريق، خصوصا الجزر اليونانية منها جزيرة ديلوس وجزيرة رودس، واللذان كانتا على علاقة تواصل مع المدن النوميديّة الساحلية، حيث تخبرنا المصادر التاريخية على مدى توطد هذه العلاقات في تشييد أحد تجار جزيرة ديلوس تمثالا لماسينيسا تكريما له (فتيحة، 2007، صفحة 275). ويمكن ارجاع التعامل مع بلاد الإغريق ربما للرؤية الصائبة لملوك النوميدي خاصة ماسينيسا في تنويع الأسواق الخارجية وعدم الاعتماد على الأسواق الرومانية فقط في تصدير القمح النوميدي.

وإذا كانت الحبوب وفي مقدمتها القمح احتلت الصدارة في الصادرات النوميديّة، فإن هناك صادرات أخرى لا تقل أهمية عن القمح والتي كانت تصدر لأسواق روما وغيرها من أسواق العالم القديم، كالحيوانات والإنتاج الحيواني وفي مقدمتها الفيلة والخيول النوميديّة والتي استخدمتها روما في حروبها، سوى في شبه جزيرة إيبيريا، أو في مقدونيا

وسوريا (الهادي، مملكة نوميديا دراسة حضارية من أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الأول ق.م، 2013)، كما صدرت الحيوانات المفترسة كالفهود والأسود والدببة التي كانت ملاهي روما تستقطبها في عروض السيرك وميادين المبارزات، كما أصبح المرمر النوميدي سلعة رائجة في روما والذي شيدت به قصور العديد من الإباطرة والحكام الرومان.

أما الواردات النوميديّة من الأسواق الخارجية فتمثلت أساساً في الحاجيات الأساسية الاواني الفخارية والمصابيح، والمنسوجات خصوصاً مع منتصف القرن الأول للميلاد، نظراً لتزايد الطلب على هذه الموارد، وحاجة السوق الداخلية لها (فاضل، 2014، صفحة 43).

أما التجارة الداخلية فتتحكم فيها بالدرجة الأساس نمط الحياة العامة للسكان، إذ التباين بين نمط سكان الأرياف والمدن خلق نوع من التكامل الاقتصادي والاجتماعي، فمبدأ التخصص الوظيفي في الإنتاج، فرض نوع من التعامل الاقتصادي الداخلي، فإذا كان أهل البادية عرفوا الإنتاج الزراعي والحيواني، فإن أهل المدينة تخصصوا في الإنتاج الصناعي؛ مما خلق نوع من التكامل الاقتصادي الذي كان مظهره انتصاب الأسواق التي كانت بمثابة ملتقى تبادل الحاجات والضروريات، فظهرت العديد من أنماط الأسواق في نوميديا، منها الأسواق اليومية والحضرية والدورية وكذا الأسواق الريفية، وهي ظاهرة في حقيقة الامر اقتصادية ارتبطت بالحاجة لتبادل السلع والبضائع مقايضة بين أهل البادية وأهل المدينة، كما شهدت مع مرور الزمن مبدأ التخصص في ترويج السلع والبضائع.

II خاتمة : في ختام هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :

- أن الازدهار الاقتصادي وتنوع الثروة في نوميديا لم يأت من فراغ، وإنما نتيجة جهود أبناء المنطقة في التفاني في خدمة الأرض.

- أن الانسان مغاربي القديم استطاع منذ وقت مبكر أن يتفاعل مع بيئته، وأن يبذل في تطويع ما توفرت له من إمكانات في خدمة الأرض واستغلالها.

- لم يكن الإنسان النوميدي في معزل عن التأثيرات الخارجية خاصة من دول الجوار القرطاجيين وغيرهم، وذلك من خلال الاستفادة من خبراتهم في فنون الزراعة، ومحاولة توظيفها في خدمة اقتصاد البلد.

- جهود الملك ماسينيسا في الاهتمام بالفلاحة والنشاط الزراعي على وجه الخصوص، مكن نوميديا في عهده أن تكون قوة اقتصادية لا يستهان بها.

براغماتية العاهل ماسينيسا مكنته من الاستفادة من مساعدة روما له في إقامة نظاماً مركزياً وذلك بتوسيع نفوذه نحو الغرب على حساب الماسيسيل (نوميديا الغربية)، كما ساعدته في الانفتاح على الموانئ والمحطات التجارية الساحلية التي كانت في يد قرطاجة.

انتقال الاقتصاد النوميدي من اقتصاد بدائي رعوي لا يساهم في التجارة المتوسطية الا بنسب ضئيلة جداً إلى اقتصاد منافس مزدهر في نهاية القرن الثالث و بداية القرن الثاني قبل الميلاد، بفضل التغييرات السياسية و الاقتصادية التي شهدتها بعد أفول نجم قرطاجة و بزوغ نجم روما و من ورائها نوميديا ؛ و لو لفترة زمنية معينة.

اكتسب النوميدي من احتكاكهم بالحضارات المجاورة القرطاجية واتصالهم بالعالم الهلينستي والروماني العديد من الأنماط الحضارية ساهمت في ثراء عملية التطور الحضاري.

- ثراء نوميديا وتنوع خيراتها كانت أحد العوامل التي مهدت لاحتلالها من قبل الاستعمار الروماني.

يعد القمح من أهم المحاصيل الزراعية في بلاد المغرب القديم وفي نوميديا تحديدا وقد حظي باهتمام بالغ من قبل أهل المنطقة حتى قبل الاستعمار الروماني، نظرا لتوفر البيئة الملائمة وطبيعة المناخ.

الإحالات والمراجع:

المؤلفات:

- الجودي ح. (2014). الضرائب الرومانية في بلاد المغرب القديم منذ سقوط قرطاجة 146 ق.م إلى نهاية الاحتلال الروماني 430 م) رسالة ماجستير. (الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر 2.
- الصالح، ا. م. (2015). التغيرات الاقتصادية والاجتماعية والدينية في بلاد المغرب القديم خلال الفترتين الوندالية والبيزنطية دراسة مقارنة) أطروحة دكتوراه. (الجزائر: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة الجزائر
- العربي، ع. م. (2008). *الاقتصاد و المجتمع في الشمال الإفريقي القديم*. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- الفتاح، خ. ع. (2012). التوسع الزراعي في إفريقيا القديمة خلال الفترة الرومانية) رسالة ماجستير. (قسنطينة: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة قسنطينة.
- الهادي، ح. م. (1992). *التاريخ المغربي القديم السياسي والحضاري منذ فجر التاريخ إلى الفتح الاسلامي*. الجزائر: المؤسسة الجزائرية للطباعة الجزائر.
- الهادي، ح. م. (2013). *مملكة نوميديا دراسة حضارية من أواخر القرن التاسع إلى منتصف القرن الاول ق.م*. الجزائر: دار هومة للطباعة والنشر.
- بشاري محمد الحبيب. (2007). *دور المقاطعات الإفريقية في اقتصاد روما بين 146 ق.م و 285 م*. الجزائر، الجزائر: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية.
- روستوفتروف، م. (1957). *تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي*، ج 1. ا. المصرية، Éd., ز. علي & محمد سليم سالم (Trads.)، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية القاهرة.
- شنياتي، م. ا. (1984). *التغيرات الاقتصادية والاجتماعية في المغرب أثناء الاحتلال الروماني*. الجزائر: المؤسسة الوطنية للكتاب.
- صفية، ح. (2014). *دور قانون مانكيانا وهديانا في الزراعة المغاربية القرنين الاول والثاني للميلاد*) رسالة ماجستير. (الجزائر، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، قسم التاريخ، جامعة الجزائر 2.
- عيسوي، م. (2009). المجتمع اللوبي في بلاد المغرب القديم من عصور ما قبل التاريخ إلى عشية الفتح الاسلامي) أطروحة دكتوراه. (قسنطينة: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية جامعة قسنطينة.
- فتيحة، ف. (2007). *نوميديا من حكم الملك جايا إلى بداية الاحتلال الروماني 213 ق.م إلى 46 ق.م*. الجزائر: منشورات أبيك.
- مسعودي، أ. (1987). *التبادل التجاري بين إيطاليا والمغرب خلال العهد الامبراطوري الاول*) رسالة ماجستير. (الجزائر، معهد التاريخ: جامعة الجزائر.
- نسليم، ب. م. (2009). *الصناعة في نوميديا من 203 ق.م إلى 46 ق.م*) رسالة ماجستير. (قسنطينة: كلية العلوم الانسانية والاجتماعية، جامعة قسنطينة.

المجلات:

الشريف، ع. أ. (2014). النشاط الاقتصادي في ليبيا القديمة منذ عصور ما قبل التاريخ حتى العصر الفنيقي. *مجلة كلية الاداب جامعة مصراتة*. 176-142، (02).

الهادي، ح. م. (2009). *اصول الزراعة في بلاد المغرب القديم مجلة الأثاريين العرب* (ص.ص 493-502).

- جهيدة م. (2014). نظرة عن اقتصاد وتجارة النوميديين *مجلة الاتحاد العام للثواربين العرب*. 8-22, (15)
- خالد م. (2022). المسكوكات النوميديية أصنافها ومكانتها في تدوين تاريخ الجزائر القديم الحقبة النوميديية 218ق.م-46ق.م. *مجلة الناصرية للدراسات الاجتماعية والتاريخية*. 13(02), 455-480.
- ربه م. ع. (2009). زراعة الزيتون في قورينائية في العصر الكلاسيكي). ا. ا. العرب (Éd.). *مجلة الاتحاد العام للثواربين العرب*, (10) 436-465.
- فاضل ل. (2014). الأنشطة التجارية والمرقائية في الجزائر القديمة خلال العهد الروماني. *مجلة كان*. 36-50, 07(23),
- هاجر شبيخي، و صبيحة أوكيل. (2022, 12). الزيتون والزيت في نوميديا وموريطانيا القيصرية خلال الاحتلال الروماني. *مجلة روافد*, 06(03)، الصفحات 975-992.

المصادر والمراجع الأجنبية:

- Fabrer(H), C. (1953). *L'olivier et L'huile dans L'Afrique romaine*. Alger: Imprimerie Officielle .
- Gsell(S). (1915). *Hérodote textes relatifs à L'histoire de l'Afrique du nord*. Alger: Typographie Adolphe Jourdan.
- Hérodote. (1980). *Histoire*. (P. l. Grand, Trad.) Paris: Belles Letters.
- Polybe. (1874). *Histoire général*. Pris: Adolphe Delahays.
- Polybe. (1970). *Histoire Romaine*. (denis Roussel, Trad.) Paris: Gallimard.
- S.Gesell. (1913). *Histoire Ancienne de L'Afrique du nord* (Vol. 5). Paris: Hachette.
- Sallustius. (1941). *Bllum Jughurtnum*. Arnout.
- sicile, D. d. (1834). *Bibliothèque Universelle*. Paris: imprimerie croyale.
- Strabon. (1857). *the geography*. London: Childs and son Printers.